﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾

[هود: 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـيـس بـعـدَ النّصحِ عـذرٌ، ولـيـس بـعـدَ الـشّـقـاقِ إلّا عذابٌ طباقٌ

لمّا بيّنَ شُعيبٌ ﷺ لقومه أنَّ غايتَهُ الإصلاحُ بما أوتيَ من توفيقه سبحانهُ، وأنّهُ فوّضَ أمرَهُ إليه وحدَهُ، "أتبَعَهُ بما يدلُّهُم على أنَّ الحقَّ وضحَ لهم وضوحًا لمْ يبقَ معهُ إلّا المعاندةُ، فحذّرَهُم عواقبَها، وذكّرهُم أمرَ مَن ارتكبَها"[1]، تحذيرًا أنْ يصيبَهُم ما أصابَ الأقوام الّتي يعلمونَ من أمرِها ما يعلمونَ، والّتي أريناها من سوءِ عذابِنا، فاستأصلناها بالغرقِ، والرّيحِ، والرّجفةِ، والخسفِ بما هو عِبرةٌ للأمم والقرونِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: جذرُ الفعلِ مادّةُ: (جرم)، فالجيمُ والرّاءُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على القطعِ، وإليه تَرجِعُ المعاني المأخوذة منه. ومعنى جَرَمَ؛ أي: كَسَبَ؛ لأنَّ الَّذي يَحوزُهُ كأنّهُ اقتَطَعَهُ، والكَسبُ اقتِطاعٌ. والمُجرِمُ: المُذنِبُ[2]، وهذه الاستعمالاتُ تعطي معنى الكسبِ والحملِ. فمعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يَحملنَّكُم[3]، وكأنَّ كسبَهُ الشّقاقَ والعداءَ اقتطاعٌ من مَوجودٍ حملَهُ إلى استحقاقِ العذابِ.

2) ﴿شِقَاقِيٓ﴾: مادّتُهُ (شقق). و(الشِّقُّ) بالكسرِ: نصفُ الشّيءِ. وهذا شقيق هذا، إذا انشقّ الشّيءُ بنصفين، فكلُّ واحدٍ منهما شقيقٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360.
(2) الخليل، العين: (جرم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).

الآخرِ، ومنه قِيلَ: فلانٌ شقيقُ فلانٍ؛ أي: أخوه، تشبيهًا لهما بالقطعةِ الواحدةِ الّتي انقسمَت شقَّين، والشِّقاقُ: الخلافُ[1]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137]؛ أي: مُخالَفَةٍ[2] والشّقاقُ: المعاداةُ والمغالظةُ[3] والشِّقاقُ بمعنى الخلافِ والعداوةِ، هو المعنى المرادُ في هذه الآيةِ الكريمةِ، فكأنَّ المُخالِفَ أخذَ شقًّا غيرَ الشَّقِّ الّذي أخذَهُ مخالفُهُ.

3) ﴿يُصِيبَكُم﴾: أصلُ مادّتِهِ (صوب)، فالصّادُ والواوُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستقرارِ قَرارِهِ. من ذلك الصَّوابُ في القَولِ والفِعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازِلٌ مُستَقِرٌّ قَرارُهُ. وهو خِلافُ الخطأ. ومنهُ الصَّوبُ، وهو نُزولُ المَطرِ[4] والإصابةُ: النّزولُ بالشّيء واللّحاقُ به، خيرًا كان النّازلُ أو شرًّا، كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء: 79]، ثمّ كَثُرَ في الشّرِّ. وجاءَتِ المصيبةُ بمعنى النّازلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: 156]. ومن هنا يتبيَّنُ أنَّ معنى ﴿يُصِيبَكُم﴾: ينزل بكُم، والمقصودُ بالنّازلِ العذابُ لِما دلَّ عليه السِّياقُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

منهجُ الحقِّ يستنزلُ الرَّحماتِ، ولو مع مَن حشدَ العداواتِ

يخاطبُ شعيبٌ عليه السلام قومَه قائلًا: يا قوم لا يَحملَنَّكُم خلافي وعداوتي على التّكذيبِ بما جئتُ به منَ التّوحيدِ ودينِ الحقِّ؛ خوفًا من أن يقعَ عليكُم منَ العذابِ مثلُ ما نالَ قومَ نوحٍ، أو قومَ هودٍ، أو قومَ صالحٍ، وليسَ قومُ لوطٍ منكُم ببعيدٍ، لا زمانًا ولا مكانًا، وقد علمتُم ما أصابَهم منَ العذابِ والهلاكِ بسببِ تكذيبِهم ومُخالفتِهمُ الحقَّ، فاعتبروا[5].

(1) الخليل، العين: (شقّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شقق).
(2) الرّاغب، المفردات: (شقَّ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق)، الجوهريّ، الصّحاح: (شقق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(5) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

مواصلةُ النَّصيحةِ دليلُ تمكُّنِ الأخلاقِ الصَّحيحةِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ عاطفةٌ على الجملة السّابقةِ[1]، فبعدَ أن كانَت نصائحُ شعيبٍ ﷺ لقومِه تترى في الآيةِ السّابقةِ، أتبعَها هنا بمثلِها، ثمَّ انتقلَ إلى تذكيرِهم بمصارعِ سابقيهم منَ الأقوامِ الّتي كذّبَت رسلَ اللّهِ، وتحذيرِهم من أن يكونَ مصيرهُم كمصيرِ أولئكَ الظّالمينَ[2].

دلالةُ تكرارِ النّداءِ:

لطفُ الخطابِ واستنزالُ المُنادى بمقتضَى المحبّةِ والشّفقةِ

في تَكرار النّداءِ تنبيهٌ على أهمّيَّةِ الكلامِ المُلقى بعدَه، وتشويقٌ للعنايةِ بمضمونِه، فقد تكرّرَ النّداءُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ غيرَ مرّةٍ قبلَ الآيةِ وبعدَها؛ فإنّ شعيبًا لمّا رأى منهُم العصبيّةَ والمراءَ بفراستِه وثاقبِ نظرِه، خاطبَهُم بمُقتضَى محبّتِهم والشّفقةِ عليهم وإرخاءِ العنانِ[3] لهُم؛ فجاءَ بهذا النّداءِ تلطُّفًا، وفي تكرارِه من رقيقِ الاستدعاءِ ولطفِ المراجعةِ وحسنِ الاستنزالِ ما فيهِ من خطيبِ الأنبياءِ شعيبٍ ﷺ في أسلوبٍ منهُ لطيفٍ غريبِ المَغزَى، أرادَ أن يُتوصَّلَ بهِ إلى الغرضِ في استدراجِ المُخاطَبِ[4].

توجيهُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾:

الجرمُ قطعُ الثّمرةِ، واستُعيرَ لكلِّ اكتسابِ مكروهٍ

جاءَ التّعبيرُ بلفظِ ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ دونَ غيرِه منَ الألفاظِ؛ لأنّ هذا اللّفظ مأخوذٌ منَ الجرم، وهو قطعُ الثّمرةِ عنِ الشّجرِ، أو جذُّ عراجينِ النّخلةِ، ثمّ استُعيرَ هذا اللّفظُ لكلِّ اكتسابِ مكروهٍ[5] أو ما لا خيرَ فيهِ؛ فأصبحَ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾؛ بمعنى: يكسبنَّكُم شائعًا عليهِ، وهو هنا

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 13/234.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/261.
(3) الطّيبيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/362.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/198.
(5) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/86.

اكتسابهُم المصيبةَ؛ أي: لا تجعلوا عداوتَكُم لي سببًا لاكتسابِ العذابِ، وفيه بيانٌ عجيبٌ بتصويرِ اكتسابِ العذابِ النّازلِ منَ السّماء.

غرضُ النّهي وبلاغةُ مجازِه:

في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ نهيٌ عن كسبِ العذابِ بحسبِ الظّاهرِ، إلّا أنّ حقيقتَهُ نهيٌ للمُخاطَبينَ عن مُشاقَّتِه ﷺ بأسلوبٍ لطيفٍ بديعٍ[1]؛ لأنَّ الانتهاءَ عن مُشاقَّتِهِ انتهاءٌ عن إتيانِ أسبابِ العذابِ، ومن ثمَّ تركه.

الانتهاء عن مشاقَّةِ شعيبٍ ﷺ انتهاءٌ عن إتيانِ أسبابِ العذابِ، ممّا يؤولُ إلى تركِهِ

والنّهيُ عنِ الشّقاقِ في الآيةِ جاءَ على طريقِ المجازِ أو الكنايةِ عن نهيهِم هُم عن شقاقِهم إيّاهُ ﷺ؛ وذلك على جعلِ إضافةِ (شقاق) إلى ياءِ المتكلّم من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِهِ؛ أي: لا يكسبنَّكُم شِقاقُكم إيّايَ أن يُصيبَكُم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ منَ الغرقِ أو قومَ هودٍ منَ الرِّيحِ أو قومَ صالحٍ منَ الرّجفةِ والصّيحةِ؛ لأنّهُ يكونُ آنئذٍ أبلغُ منْ أنْ يوجّهَ النّهيَ إليهِم مباشرةً؛ فإنّهُ إذا نهى الشِّقاقَ، وهو فاقدُ العقلَ، عَلِمَ نَهيَ الّذينَ يُشاقّونَ بالطّريقِ الأوْلى[2].

فالمقصود أنْ ينهاهُم أنْ يجعلوا الشِّقاقَ مدعاةً لأنْ يُعرِضوا عنِ النّظرِ في دعوتِهِ والإيمانِ بها؛ فإنْ لم يفعلوا أحلّوا أنفسَهُم محلًّا ليسَ لهُم إلّا أنْ يصيبَهُمُ العذابُ الّذي أخذَ غيرَهُم، وهُمْ يظنّونَ أنّهُم يمكُرونَ، وما يمكُرونَ إلّا بأنفسِهِم[3].

سرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾:

أُوثر التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لدلالتِهِ على تصويرِ حرصِ المناوئينَ على اكتسابِ الشِّقاقِ، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الفعلَ مُتجدِّدٌ؛ فليسَ يخلو زمانٌ أو مكانٌ من أناسٍ أمثالِ قومِ شعيبٍ،

تجدُّدُ الشِّقاقِ ملحوظٌ في منهجِ الصّادِّين عنِ الإيمان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/146 - 147.

يكذّبونَ دعوةَ اللّهِ تعالى، ويجعلونَ الشِّقاقَ سببًا للإعراضِ والصَّدِّ عن دينِ اللّهِ تعالى؛ فيمكُرونَ، وما يمكرونَ إلّا بأنفسِهم، وهو أمرٌ يجري حكمُهُ حتّى يرثَ اللّهُ الأرضَ، ومَن عليها.

دلالةُ التّأكيدِ:

إصرارُ المُشاقِّين يُقابلُهُ إصرارُ الدُّعاةِ على الحقِّ

أوردَ فعلَ الجرم مُؤكَّدًا بنونِ التّوكيدِ المثقّلةِ[1] في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾، والتّوكيدُ هنا دالٌّ على إصرارِهم على المشاقّةِ والعداوةِ[2]، وآيةُ ذلكَ أنَّ العذابَ قد أصابَهُم مثلَما أصابَ مكذِّبي الرّسلِ قبلَهُم بالخزي والاستئصالِ، كما أنَّه دالٌّ على إصرارِ شعيبٍ عليه السلام على نهيِهم عن غيِّهم.

معنى الإضافةِ ودلالتُها:

معاداةُ المُجرِمين للمُؤمنينَ تجعلُهُم يُشاقُّون لأجلِ المُشاقَّةِ

أُضيفَ الشّقاقُ إلى ضميرِهِ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾، وهو من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِهِ[3]؛ فإنَّ الشّقاقَ واقعٌ منهُم على شعيبٍ عليه السلام؛ أي: لا تجعلوا شِقاقَكُمْ إيّايَ يَكسبَنَّكُم العذاب بأن يكونَ مصيرُكُم مصيرَ قومِ نوحٍ أو قومِ هودٍ أو قومِ صالحٍ الّذينَ جُوزوا سيِّئَ الجزاءِ لتكذيبِهم الرُّسلَ، ودلالةُ الإضافةِ أنَّ الشِّقاقَ أصبحَ مُلتصقًا بشعيبٍ عليه السلام، فكأنَّه له.

بلاغةُ التّعبيرِ بالإصابةِ:

الإصابةُ دالّةٌ على القصدِ وبلوغِ الهدفِ

في استعمالِ لفظِ الإصابةِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾، والمرادُ: الإيصالُ والإلحاقُ قوّةٌ وبلاغةٌ، فإنَّ الأصلَ في معنى الإصابةِ النُّزولُ والاستقرارُ والانتهاءُ إلى الموضعِ[4]؛ أي: إيصالُ عذابِ الدّنيا وإلحاقُهُ إلى الأقوامِ المذكورينَ، بإصابةٍ بالغةٍ ومقصودةٍ، وهو مُتنوِّعٌ بينَ الغرقِ والزّلزلةِ ونحوِهما[5].

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/481.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/120.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/180.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

المُشاقَّةُ علّةُ الإصابةِ بالعذابِ الأكيدِ

المصدرُ المُنسبكُ من (أنْ) والفعل في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ مفعولٌ ثانٍ لفعلِ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، والفاعلُ ضميرُ الشِّقاقِ، فجاءَ بالمصدرِ المؤوّلِ دونَ المصدرِ الصّريحِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾؛ لأنّهُ أرادَ أن يكونَ الحرفُ المصدريُّ ﴿أَن﴾ تعليلًا وتوكيدًا[1]؛ فإنَّ في مشاقَّتِهِ ﷺ علّةً لأنْ يصيبَهُمُ العذابُ المؤكَّدُ الّذي لا مهربَ منهُ ولا مناصَ. وفي إيثارِ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ دون الصّريحِ دلالةٌ على زمنِ الإصابةِ في الحالِ والاستقبالِ؛ لكون الفعلِ المنسبكِ مع (أنْ) مضارعًا، وهو ما لا يؤدّيهِ المصدرُ الصّريحُ؛ إذ ليس في صيغتِهِ ما يدلُّ على تحديد زمنٍ، فضلًا عن أنّ المصدرَ المؤوّلَ، ولا سيّما مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّدِ معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أن) تحصينٌ منَ الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ[2]. فالتّشبيهُ بإصابةِ الأقوامِ السّابقةِ هي المرادة دون بيانِ هيآتِها، وكيفيّاتِها.

براعةُ استعمالِ المجازِ:

اللهُ تعالى هو الّذي يُعذِّبُ المكذِّبينَ

أُسندَ فعلُ الإصابةِ إلى ﴿مِّثْلُ﴾ على طريقِ المجازِ؛ لأنّهُ سببٌ؛ أي: أنَّ اللّهَ تعالى يصيبُكُم لعلّةِ الشِّقاقِ؛ لذلكَ جعلَ الإصابةَ مُسندةً إليهِ مجازًا[3]، وفي الأصلِ هو صفةٌ لفاعلٍ محذوفٍ تقديره: عذابٌ مثل[4]، وعلى جعل الفاعلِ ﴿مِّثْلُ﴾، أو المُقدَّر فإنَّه إسنادٌ مجازيٌّ، والفاعلُ في الحقيقةِ اللّهُ تعالى، فإنَّه هو الّذي يُصيبُ المُكذِّبينَ بالعذابِ، فهو مجازٌ إسناديٌّ، ومجازٌ بالحذفِ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 12/84.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/147 - 148.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/180.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/418.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّثْلُ﴾ دونَ الكافِ:

المماثلةُ في مُطلَقِ الإهـــلاكِ لا في أنواعِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾، استُعملَ ﴿مِّثْلُ﴾ دونَ الكافِ ونحوِهِ تشبيهًا بما أصابَ أقوامًا مختلفةً، فالمقرّرُ أنّهُ قد أصابَ الغرقُ قومَ نوحٍ، وأصابَتِ الرّيحُ قومَ هودٍ، وأصابَ قومَ صالحٍ الصّيحةُ، فهذهِ أنواعٌ متفاوتةٌ منَ العذابِ، وقد يُسألُ عن تباينِ العقوباتِ النّازلةِ على الأقوامِ السّابقةِ، فكيفَ يكونُ التّمثيلُ بها مُجتمعةً؟ والجوابُ: أنَّ المماثلةَ في القدرِ المشتركِ بينهُما، وهو مطلقُ الإهلاكِ[1]. ويؤدّي هذا المعنى ﴿مِّثْلُ﴾ بوصفها نكرةً مُوغِلةً في الإبهامِ الّذي لا تنحصرُ فيها أوجهُ المغايرةِ والمشابهةِ؛ لإفادتها العمومَ. ويُظهرُ استعمالُها ههنا الإيغالَ في الشّبه من حيث تعدّدُ العقوباتِ، وتنوُّعُها[2].

دلالةُ استعمالِ ﴿مَآ﴾:

أنـواعُ العـذابِ الـنّـازلِ على المـكـذِّبـينَ، لا يعلمُ بحقيقتِها إلّا الله تعالى

﴿مَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾ اسمٌ موصولٌ مضافٌ إليه ﴿مِّثْلُ﴾[3]، وهو منَ الموصولاتِ الدّالّةِ على الإبهامِ والعموم[4] والشّمولِ لا على النّصِّ والتّعيينِ كالّذي والّتي ونحوِهما، واستعمالُها في هذا الموضعِ للدّلالةِ على تعدُّدِ أنواعِ العذابِ الّذي يعتري الأممَ الّتي تكذِّبُ برسلِها وكثرتِها، وأنّ الحقَّ سبحانَهُ قادرٌ على أن يصبَّ أنواعًا منَ العذابِ بما يفوقُ توقُّعَ الإنسانِ بما تقتضيهِ ﴿مَآ﴾ من دلالتِها على العمومِ والإبهامِ. وبلحاظِ اقترانِها بـ ﴿مِّثْلُ﴾ الدّالّةِ على العمومِ أيضًا.

سرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿أَصَابَ﴾:

التّـهـديـدُ بما وقعَ وثبتَ أبلغُ، وأرســـخُ مـمّا سيقعُ

عبّرَ عمّا أصابَ الأممَ السّابقةَ بالفعلِ الماضي ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾؛ للدّلالةِ على تأكيدِ حصولِ العذابِ على تلك الأقوامِ والأممِ؛ ممّا

(1) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 1/187.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/126.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 2/1035.
(4) الأزهريّ، شرح التّصريح: 1/317.

ارتكبوا منَ القبائحِ والموبقاتِ في الزّمنِ الماضي الدّالِّ على الثّبوتِ والتّحقُّقِ، وأنّه حاصلٌ لا مجالَ لإنكارِهِ؛ ففيهِ مزيدُ تحذيرٍ وتهديدٍ ووعيدٍ؛ لأنّهُ واقعٌ فعلًا، وهو أوْقَعُ أثرًا لهؤلاءِ من التّخويفِ بأمرٍ مُستقبلٍ، ولمّا كانوا مُقلِّدينَ آباءَهَم في عبادةِ الأوثانِ؛ فحاجَّهم بأنّكم تتّبعونَ آباءَكُم في عبادةِ الأوثانِ، فاتّبعوهُم فيما بلّغوكُم بهِ من هلاكِ أولئكَ بتكذيبِهمُ الرّسلَ، فوقعَ عليهمُ العذابُ[1].

دلالةُ البدءِ بقومِ نوحٍ:

البدءُ بالمعلومِ أثبتُ في العلومِ

في ذكرِهِ مصابَ الأقوامِ السّابقةِ، استهلّ الكلامَ بذكرِ قومِ نوحٍ عليه السلام في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾، ودلالةُ ذلكَ أنّ المخاطَبينَ من قومِ شعيبٍ لم يكنْ قد بلغَهُم منَ الأممِ الهالكةِ قبلَ قومِ نوحٍ فقدَّمَهُم[2]؛ ولأنّ نوحًا قد جاءَت رسلٌ على دينِهِ، منهم هود وصالح، وقد ذكرَهما القرآنُ غيرَ مرّةٍ عقبَ ذكرِ نوحٍ[3] عليه السلام.

سرُّ التّعبيرِ بـ﴿أَوْ﴾:

التّهكُّمُ بالمخاطَبينَ فالإنسانُ لا يختارُ عذابَه

استُعمل حرفُ التّخييرِ ﴿أَوْ﴾[4] في تحذيرِ القومِ ممّا أصابَ الأقوامَ البائدةَ قبلَهُم بقولِهِ: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ على إرادةِ تخييرِهِم المشوبِ بالتّحذيرِ والتّهديدِ، كأنّه قال: اتّعِظوا بأيِّ عذابٍ اخترتُموه؛ بالغرقِ، أو الرّجفةِ، أو الصّيحةِ، فأيُّ نوعٍ منها هو أليمٌ شديدٌ، وغرضُ التّخييرِ التّهكُّمُ بالمخاطَبينَ، فإنَّ الإنسانَ لا يختارُ عذابَه.

ففي التّعبيرِ بالحرفِ ﴿أَوْ﴾ إشارةٌ إلى الاعتبارِ بما أصابَ الأقوامَ السّابقةَ، وهُم قومُ نوحٍ بالغرقِ، وقومُ هودٍ بالرّيحِ، وقومُ صالحٍ بالصّيحةِ، وقومُ لوطٍ بالقلبِ والرّجمِ؛ فلأنَّ مُخالفةَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/524.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/136.
(4) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصّفات: 13/48.

الرّسلِ وتكذيبَهُم مآلُهُ أحدُ هذهِ الأحوالِ والأمورِ المعطوفةِ بحرفِ التّخييرِ[1].

سرُّ الجمعِ بينَ قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ:

الكفرُ ملّةٌ واحدةٌ مبدأً ومآلًا

جمعَ الحقُّ سبحانهُ بينَ الأقوام الهالكةِ؛ قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ؛ لأنّهُم جمعوا بينَ أحوالِ الكفرِ والجحودِ على ما أوتوا من فضلٍ، لكنّهُ لمْ يغنِ عنهُم شيئًا، ولم يشكروا نعمَهُ تعالى، فقد أوتيَ قومُ نوحٍ طولَ العمرِ وتنائيَ الأقطارِ، وأوتيَ قومُ هودٍ شدّةَ الأبدانِ وتماديَ الأمانِ، وأوتيَ قومُ صالحٍ نحتَ البيوتِ وتشييدَ عوالِي القصورِ[2]، فكفروا أنعُمَ ربِّهم؛ فأخذَهُم أخذًا وبيلًا؛ فالكفرُ ملّةٌ واحدةٌ تفكيرًا وجحودًا ونكرانًا.

دلالةُ ترتيبِ ذكرِ الأقوام الهالكةِ:

البدءُ بالأبعدِ والأشملِ عقوبةً فالأقربِ لغةً فمكانًا

تناولتِ الآيةُ الحديثَ عنِ الأقوام الّتي أهلكَها اللّهُ بمدعاةِ تكذيبِها الرّسلَ، رتّبَ هذهِ الأقوامَ بحسبِ ترتيبِها الزّمنيِّ؛ وهم قومُ نوحٍ، ثمَّ قومُ هودٍ، ثمَّ قومُ صالحٍ، ثمَّ قومُ لوطٍ، وهو ترتيبٌ ملحوظٌ فيه البعدُ الزّمانيُّ، إلّا أنَّ الغايةَ من هذا التّرتيبِ هو البدءُ بالأبعدِ زمانًا والأشملِ عقوبةً؛ وهم قومُ نوحٍ، ثمّ الأدنى قوميَّةً؛ وهم عادٌ وثمود، فهم يعرفونَ تفاصيلَ تلك الأقوام، ثمّ الأقربِ مكانًا؛ وهم قومُ لوطٍ.

معنى الواوِ ودلالتُها:

قومُ لوطٍ هُم أقربُ الهالكينَ زمانًا ومكانًا من قوم شعيبٍ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ حاليّةٌ[3] من ضميرِ النّصبِ المُتّصلِ بالفعلِ ﴿يُصِيبَكُم﴾، فالجملةُ بعدَها في موقعِ الحالِ، وفيهِ مناسبةٌ مؤكّدةٌ لمضمونِ الجملةِ على اعتبارِ قُربِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/126.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 2/70.

زمانِهم منَ المخاطَبينَ أمرًا يشبهُ حالةً من أحوالِ المُخاطَبينَ[1]، كأنَّه قالَ: ما وقعَ لقوم لوطٍ ليس ببعيدٍ أن يقعَ عليكُم فيما تستحقّونَ به العذابَ منَ الكفرِ والمعاصي؛ فإنّهم أقربُ الهالكينَ منكُم زمانًا، أو المعنى: ما ديارُ قوم لوطٍ منكُم ببعيدٍ بالمكانِ، فإنّهُم كانوا جيرانَهُم[2].

دلالةُ اختلافِ التّعبيرِ عن قوم لوطٍ:

التّلويحُ بقربِ نزولِ العذابِ

لمّا ذكرَ الأقوامَ الّتي أهلكَها من قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ ﷺ في مشاكلةٍ مناسبةٍ بينَ هؤلاءِ: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾، عمدَ مع قوم لوطٍ، فأثبتَ قربَهم بنفي بعدِهم، وتغيير الأسلوبِ معهم تعظيمًا للتّهويلِ والتّضخيم، فقالَ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، أي: بسببِ قُبحِ أعمالِهم وسوءِ حالِهم ووبالِهم[3]، ففيه تلويحٌ بقربِ نزولِ العذابِ فيهم. وهو من بابِ ضربِ المثلِ بمصيرِهم؛ ولأنَّ قصّتَهُم أقربُ القصصِ عهدًا بقصّةِ قوم شعيبٍ[4]؛ فهلّا اتّعظتُم واعتبرتُم بما آلَ إليه أمرُهُم منَ العذابِ والاستئصالِ.

وفي الجملةِ تغييرٌ لأسلوبِ التّحذيرِ بتلكَ الأقوامِ الهالكةِ، واكتفى بذكرِ قوم لوطٍ، وهُم أقربُهُم؛ إيذانًا بأنَّ ذلكَ يُغني عن أن يذكرَ ما أصابَهُم لشهرتِهِ؛ ولأنّهُ منظومٌ في سِمطِ ما ذُكرَ ممّا أصابَ الأممَ السّابقةَ[5].

التّعبيرُ عن قوم لوطٍ بينَ المجازِ بالحذفِ والكنايةِ:

التّحذيرُ منَ العذابِ القريبِ بالعذابِ القريبِ

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أنّهُ نفى بعدَهُم عن قوم لوطٍ، ففيه مجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ نفيَ البعدِ ليسَ مرادًا لذاتِهِ، ولا يتعلّقُ بهِ حكمٌ شرعيٌّ، وإنّما القصدُ تهديدُهُم ووعيدُهُم؛ فكأنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(2) المظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360 - 361.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/202.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.

قال: وما إيقاعُ عذابِنا بقوم لوطٍ، وهلاكهم[1] بسببِ عصيانِهم وارتكابِهم الموبقاتِ ببعيدٍ، فلا تكونوا مثلَهُم، ونستطيعُ حملَهُ على الكنايةِ بقصدِ التَّهديدِ، فهو يُحذِّرُهم منَ العذابِ القريبِ الّذي سينزلُ عليهم بالعذابِ القريبِ الواقعِ على قوم لوطٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها:

تـوكـيـدُ النّـفـي زيادةٌ في التّحذيرِ والتّخويفِ من سوءِ المصيرِ

الباءُ الدّاخلةُ على خبرِ ﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ تفيدُ التّوكيدَ؛ توكيدَ النّفي، وهذا شأنُها ومعتادُها في لسانِ العربِ وكلامهم مع (ليسَ)[2]، ولمّا كانتْ (ما) مشبّهةً بـ (ليسَ) أُحكِمتْ بأحكامها، وفي توكيدِ نفيِ بعدِهم عن مآلِ قوم لوطٍ زيادةٌ في التّحذيرِ والتّخويفِ أنْ يصيبَكُم الهلاكُ مثل ما أصابَهُم، فإنْ نسيتُم أولئكَ فلا تنسَوا ما حلَّ بقوم لوطٍ، فهُم أقربُ إليكُم ممّن تقدَّمَهُم[3] زمانًا ومكانًا وعملًا.

نكتةُ التّعبيرِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾:

قـــربُ الـهـلاكِ زمـانًـا ومـكـانًـا طـريـقُ الاعـتـبـارِ لأهلِ الأنظارِ

عبَّرَ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ المنّفيةِ دونَ غيرِها منَ الألفاظِ؛ لأنّ هلاكَهُم كانَ بالأمسِ قريبًا منهُم؛ ولأنّ دورَهُم كانتْ قريبةً منهُم[4].

وفي نفيِ البعدِ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾، وإنْ كانَت متعلِّقةً بقربِ العهدِ من عهدِهم، وقربِ الدّيارِ من ديارِهم إلّا أنَّ العِبرةَ أنّهم لا "يبعدونَ منكُم في الكفرِ والمساوئِ، وما يستحقُّ بهِ الهلاكُ"[5].

وفي القربِ في الزّمانِ والمكانِ فائدةٌ أخرى؛ وهيَ أن يتحصّلَ كمالُ الوقوفِ على تلك الأحوالِ، ومزيدُ المعرفةِ الموصلِ إلى الاعتبارِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/167.
(2) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/90.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/26.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/422.

بأحوالهم، وما جرى لهُم، والحذرِ من مخالفةِ أوامرهِ تعالى؛ كي لا ينزلَ بكُم ما نزلَ بهِم منَ العذابِ والعقابِ[1].

سرُّ العدولِ عن بعداء إلى بعيدٍ:

البعيدُ خبرُ العذابِ المحذوفِ لفظُه

أخبرَ عن قوم لوطٍ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ بالإفرادِ، والمخبرُ عنهُ جمعٌ، فكانَ القياسُ أنْ يخبرَ عنهُ بأن يُقالَ: (بعداء) أو (بعيدين) أو نحوهما، ومُوجبُ ذلكَ جعلهُ على تقديرِ: (ما هُم بشيءٍ بعيدٍ) أو جواز التّسويةِ في القريبِ والبعيدِ، وبينَ المذكّرِ والمؤنّثِ؛ لأنّها جاءَت على زِنَةِ المصدرِ كالصّهيلِ والنّهيقِ[2]، وهو ممّا يستوي فيهِ المذكّرُ والمؤنّثُ، أو أن تُجعلَ على المجازِ بحذفِ المضافِ، وهو العذاب، والتّقدير: وما عذابُ قوم لوطٍ منكُم ببعيدٍ، وهذا أوضحُ مَسلكًا، وأرسخُ معنًى، وأليقُ سياقًا.

لم يكونوا بعيدينَ مكانًا، وطبيعة إهلاكٍ

وأفردَ لفظَ ﴿بِبَعِيدٍ﴾؛ لأنّ المرادَ: وما إهلاكُهُم، أو ما هُم بشيءٍ بعيدٍ، أو ما مكانُهُم ببعيدٍ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّقاقُ والعداوةُ والبغضاءُ:

المُشاقّةُ تباعدُ طرفينِ مع اشتمالِها للعداوةِ، والعداوةُ أعمُّ، والبغضاءُ خاصّةٌ بالباطنِ

ذكرَ الحقُّ سبحانهُ الشّقاقَ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ تعبيرًا عن صدِّهِم عن دعوتهِ، والأصلُ في الشّقاقِ من شقِّ الشّيءِ نِصفينِ فبعُدَ أحدُهُما عن الآخرِ، ومَنْ يشاقِق آخرَ فقد عاداهُ وباعدهُ، فكانَ الأصلُ فيهِ البعدَ، ويردُ في القرآنِ الكريم على أوجهٍ؛ منها: الضّلالُ والخلافُ والعداوةُ[4]؛ فعلى هذا الاعتبارِ يكونُ الشّقاقُ شاملًا الصّفاتِ الأخرى كالعداوةِ؛ لذلكَ عبّرَ في هذهِ الآيةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/389.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/422، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(3) المظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/111.
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 267.

بالشّقاقِ، ولمْ يُعبّرْ بالعداوةِ وقرينتِها البغضاءِ، فضلًا عن أنَّ المشاقّةَ معَ كونِها تتضمّنُ العداوةَ إلّا أنّها مُقترنةٌ بالعصيانِ والعنادِ[1].

المثْلُ والشَّبَهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أوردَ مفردةَ المثلِ، ولمْ يستعملْ مرادفَهُ، وهو الشّبهُ؛ لأنّ الشّبهَ يُستعملُ فيما يشاهَدُ؛ فيُقالُ السّوادُ شبهُ السّوادِ، ولا يُقالُ: القدرةُ شبهُ القدرةِ؛ لأنَّها لا تُشاهَدُ، وإنّما يُقالُ مثلُها، وليسَ في الكلامِ شيءٌ يصلحُ في المماثلةِ إلّا الكافُ والمثلُ، فأمّا الشَّبهُ والنّظيرُ فهما من جنسِ المثلِ[2]، فهذهِ ثلاثةُ مرجّحاتٍ لاستعمالِ المثلِ وتركِ استعمالِ الشّبهِ، فأمّا الأوّلُ فإنَّ الشّبهَ يُرادُ لما كانَ حسّيًّا مُشاهَدًا، والموضعُ هنا ليسَ موضعَ تشبيهٍ حسّيٍّ، وإنْ كانَ في سياقِ العذابِ؛ لأنَّ العبرةَ ليستَ بهيئةِ العذابِ وجنسِهِ، بل بما آلَ إليهِ أمرُ الأقوامِ الّتي تكذّبُ رسلَها، وهو العذابُ، وتلكَ المهلكاتُ الّتي رمى الحقُّ سبحانهُ بها أولئكَ المعاندينَ، وأمّا الثّاني فالمثلُ يُرادُ للقدرةِ، وهو مُتحقّقٌ في الآيةِ في قدرتِهِ تعالى على إيقاعِ العذابِ بالأقوامِ الّتي تنكَّبَت عنِ الصّراطِ المستقيمِ كالواردِ مع قومِ نوحٍ، وأمّا الثّالثُ فإنّهُ أرادَ التّمثيلَ بتلكَ الأقوامِ، والمثلُ أمرٌ كليٌّ يدخلُ تحتَهُ الشّبهُ، فهو أعمُّ وأشملُ.

المثلُ أعمُّ وأشملُ منَ الشّبهِ، وهو هنا للقدرةِ، وسيقَ في الآيةِ للعِبرةِ

(بعيدٌ) و(سحيقٌ):

لمّا أرادَ أنْ ينفيَ بعدَهُم عمّا أصابَ قومَ لوطٍ إنْ هُم أصرّوا على مَوقفِهم من دعوتِهِ، قالَ: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، والبعدُ ضدُّ القربِ، أمّا السّحيقُ ففيهِ معنى البعدِ مع زيادةٍ؛ فقد استعملَهُ الحقُّ سبحانَهُ فيما تجاوزَ معنى البعدِ، كوصفِهِ المُشركَ بقولِهِ: ﴿تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحجّ: 31]، وهو في مقامِ الذّمِّ الّذي يقتضي

البعيدُ خلافُ القريبِ مُطلَقًا، والسّحيقُ أبعدُ وأغورُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/284.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 294.

المبالغةَ في الوصفِ، فالسّحيقُ البعيدُ العمقِ، مع أنَّ الأصلَ في السّحيقِ منَ السّحقِ بمعنى تفتيتِ الشّيءِ[1]؛ فإيرادُ صفةِ البعيدِ أليقُ في هذا المقام؛ فإنَّ القومَ المُعتَبَرَ بهِم، وهم قومُ لوطٍ "ليسَ مكانُهُم ببعيدٍ من مكانِكُم، أو ليسَ زمانُهُم ببعيدٍ من زمانِكُم، أو ليسُوا ببعيدٍ منكُم في السَّببِ المُوجِبِ لِعقوبتِهم، وهو مُطلقُ الكُفرِ"[2].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سحق).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/589.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»